الفصل الأول

الفخر الذاتى

قلنا فى مقدمتنا إن الفخر الذاتى هو ما دار حول الشاعر فى نفسه وفى آبائه وأجداده . وهذا كثير فى الأدب العربى لا يكاد يخلو منه ديوان ؛ وذلك أن العربى نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميال إلى التعالى والمباهاة ؛ شديد الاندفاق بما فى نفسه من نزعات ، والتغنى بما فيها من حسنات ؛ شديد التطلع إلى ما مضى من الزمان وإلى مآثر الآباء والأجداد ؛ وهم فى نظره هو عاملاً بأيديهم ، مفكراً بعقولهم ؛ باذلاً بأكفهم ، رافعاً مداميك المجد بأناملهم الزهراء ؛ قائلاً أروع القول بألسنتهم البليغة . وللصحراء المجدبة يد فعالة فى تطلب ما لا يوجد ، وفى استثارة الهمة لنيل المثل العليا ؛ وللأخطار والضيقات يد فعالة فى تنزى الطموح وتوثبه إلى الذرى ؛ ولمهاجمة العناصر وقوى العدو الغازى أو المستعمر يد فعالة فى اهتزاز الأعصاب واستحثاث الغضبة الكبرى ؛ التى تنفجر مفاخر لا يحد من انطلاقها حد ، والتى تتسلح بأجنحة الخيال المضخم ، وتدوم فى أجواء تناطح غوارب المستحيل .

والأخلاق والعادات تماشى ، عند كل أمة ، حاجاتها وصور معيشتها ، ومن ثم كانت الأخلاق والعادات التى فخر بها العرب ثمرة حاجاتهم وصور معيشتهم ؛ وقد فخروا بكرم العنصر ، وقوة العصبية ، ومنعة الجانب ، والشجاعة ، والكرم ، والإباء ، والوفاء ، والمروءة ، وما إلى ذلك مما كان شأنه عندهم عظيما . ثم فخروا بالتعقل ، والفيض الشعرى ، وحسن الصياغة ، والجمال الفنى ، وما إلى ذلك مما سنأتى على ذكره فيما بعد .

عاش العرب ، أول ما عاشوا ، فى بلاد تعددت صحاريها . وقلّ ماؤها ،

واتسعت أراضيها المجدبة ، وتسلط عليها الحر والسموم ، فكانوا فى أكثرهم بدواً يسكنون الخيام وينصرفون إلى رعى الإبل والشاء ، لا يقيهم غير سواعد قوية وقلب جرىء وتضامن قبلى ؛ ومن ثم كانت الشجاعة أغنية آمالهم ؛ وكانت القبيلة محط رحالهم يرتكز عليها نظامهم الاجتماعى ؛ ويتعصبون لها أشد التعصب .

ولما كانت الحياة فى البادية معرضة لقسوة السماء والأرض ، يلوح فيها شبح الفاقة كل حين ، عظم شأن الكرم عند العرب ؛ وهو سبيل العيش لفئة كبيرة من الناس ، وراح الشعراء يتغنون به ؛ ويفخرون بالبذل والعطاء ؛ ويفخرون أنهم يعطون على البديهة ؛ وأنهم يسرعون فى البذل وإن جهلوا السائل ؛ وأنهم يتهللون إذا جاء الطالب وأتاح فرصة للعطاء ، وأنهم يرحبون بالضيف ويقدمونه على الأهل والولد ؛ ويوقدون له نار القرى ليلاً على الجبال والربى ؛ ويعوِّدون كلبهم أن ينبح للضيفان فيهتدوا بصوته ، إلى غير ذلك مما لا حصر له .

والحياة فى البادية حياة فطرة وصفاء طبيعة ، ومن ثم مال العرب إلى الحلم والإباء والشرف ، وراحوا يتغنون بكرم قلوبهم ؛ وترفعهم عن الفحشاء ؛ وتنكرهم للعار والصغار ، وتواضعهم وحيائهم ؛ وعفوهم عند المقدرة ، كما راحوا يتغنون بثورتهم فى وجه الإهانة ، وصلابتهم فى طلب الثأر .

والحياة فى البادية حياة ترحل وتنقل ؛ لا يقيدها قيد قانون ، ولا قوة منفذة ، ولا محاكم ولا شرطة ؛ ولذلك كانت كلمة الشرف قانون الحياة ، وكان الوعد الصادق سنة المجتمع ، وكان الوفاء عند العرب من أقدس الأمور ، والغدر ونقض العهود من أحقرها وأبغضها إلى النفوس ، ولهذا تغنى الشعراء بالوفاء ، وأشادوا بذكر الأوفياء .

والحياة فى البادية حياة فروسية يعمل الأبطال فيها على حماية المستضعفين والبائسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروبين ؛ وقد تغنى الشعراء من ثم بحفظ الجار وإعزاز جانبه ، وبتلبية دعوة المكروبين فى الحرب ، وبفك

العانى الذى أسر ، وبالدفاع عن المرأة ، وبكل ما هو من ميزات الفروسية الحق التى ترفع الإنسان إلى درجة عالية من السمو والكمال .

تلك كانت الحياة فى البادية ، وتلك كانت الخلال التى فخر بها الشعراء . ولما جاء الإسلام جمع كلمة العرب ونقل حياتهم من فردية قبلية إلى قومية عربية ، ونظم شؤونهم الاجتماعية ، وتناول أصولهم الأخلاقية وهذبها ونماها ووجهها فى طريق الاستقامة والفضيلة والخير ، ولبث الشعراء يفخرون بها مصطبغة بالصبغة الإسلامية ، ويزيدون ما توحى به البيئة الجديدة والدين الجديد . ولما كان العهد العباسى حيث نقلت ثقافة العالم القديم إلى العرب ، وانتشرت فى ديارهم الحركة العلمية ، وشاع فيهم التحصيل العلمى والسعى فى تركيز المعلومات ، وسن قوانين الكتابة والصناعة ، زاد الشعراء على مفاخرهم ما أوحت به البيئة الجديدة ، فراحوا يتغنون بالشاعرية والعقل واللباقة فى استنباط المعانى ، كما راحوا يتغنون بالذوق فى التنضيد والزخرفة وما إلى ذلك . ولبثت تلك الحركة الفخرية على حالها من ناحية الموضوعات والأساليب إلى منتصف عهد النهضة ، وقد تقلص ظلها شيئاً فشيئاً بازدياد الوعى وتطور الحضارة . وإليك نظرة تاريخية تحليلية فى أشهر شعر الفخر الذاتى على ممر العصور .

الفخر الذاتى فى الجاهلية

نبت الفخر فى الجاهلية نبتاً تلقائياً من نفوس تهوى العزة والمجد ، وقد ساعد عليه ما كان هنالك من أسواق تبسط أمام القبائل ميادين قول ومفاخرة ؛ ومن مواقف منافرة تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين ، فينفره على خصمه ومنازعه ويفضله عليه مبيناً ما له من فضائل وحسنات ؛ ومن مجالس أدب كان العرب يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار ، وكانوا يسمونها أندية ، وكان لكل ناد فناء يزدحمون فيه للتناشد والتفاخر .

١ ـ فخر الصعاليك :

للصعاليك في الأدب العربي فخر هو عصارة البادية وخلاصة النفس العربية الأصيلة . فتأبط شراً هو البادية في بداءتها وقسوتها ، في شظف عيشها وانطلاق حريتها ، في هربها من النفس إلى النفس ، في سذاجتها العذبة وفي ماديتها اللاحقة بالأرض . وهو رجل الانفرادية الذي لا يصحبه إلا « الثعالى الأفل » ، ورجل الحزم الذي يقرن الشجاعة إلى الفطنة ، والإقدام إلى الحكمة ، فيحتال على الأيام ويبعث النظر رائداً للعمل . فهو « للقصد يبصر » وهو « إذا سد منه منخر جاش منخر » ، وهو « شرى » للعدو و« أرى » للصديق . والحرية الجاهلية من أقدس الأمور لديه فهو يؤثر الموت على ذل الأسر والقيد ، إلا أن الموت لا يناله بل « يبقى خزيان ينظر » فيتغلب على الموت بالحزم ، ويفلت من القيد بالحيلة . فهو أبداً يقظان يحسب لكل شيء حساباً ، وهو أبداً رجل الشخصية القوية والثقة بالنفس . وهو على فقره وتشرده كريم جواد يقرى الضيف صيف شتاء ، ويؤثر أضيافه على نفسه ، كما يدفع عن جاره ، ويأبى إلا أن يكون عزيز الجانب ، قرير العين . والثأر في نظره واجب وهو حكم الحقيقة ولسان الحق :

إذا المَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وقَدْ جَدَّ جَدُّه ... أَضاعَ وقاسَى أَمْرَهُ وهوَ مُدْبِرُ

وَلكِنْ أَخُو الحَزْمِ الذي لَيْسَ نازِلا ... بهِ الْخَطْبُ إلا وَهْوَ لِلقَصْدِ مُبْصِرُ

فذاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ ما عاشَ حُوَّل ... إذا سُدَّ منْهُ مَنْخِرٌ جاشَ منخرُ

أَقولُ للحْيانٍ وقد صفِرَت لهُمْ ... وِطابِي ويَوْمِي ضَيِّقُ الْجُحْرِ مُعْوِرُ

هُما خُطتا إمّا إسارٌ ومِنَّـةٌ ... وإمَّا دَمٌ والقَتْلُ بالْحُرِّ أَجْدَرُ

وأُخْرَى أُصادِي النَّفْسَ عنها وإنَّها لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إنْ فَعلْتُ ومَصْدَرُ
فَرَشْتُ لَها صَدْرِى فزَلَّ عنِ الصَّفا به جُؤْجُؤٌ عبْلٌ ومَتْنٌ مُخَصَّرُ
فخالَطَ سَهْلَ الأَرْضِ لم يَكْدَحِ الصَّفا به كدْحَةً والْمَوْتُ خزْيانُ يَنْظُرُ
فأَبْتُ إلى فَهْمٍ وما كِدْتُ آئباً وكَم مِثْلها فارَقْتُها وهْىَ تَصفِرُ

وذلك هو العربى الجاهلى ، وتلك هى النفس العربية الأصيلة التى ما تعلمت بعد أن تموه الحقيقة بالصنعة والكذب ، فالحياة عنده هزء بالحياة ، وتعلق بها ، هى كرامة تحفظ ، ومال يبذل ، وحرية تقدس ، ويد تمتد ، وانطلاق من غير انكفاء فى جو من الاطمئنان والحذر ، واللاوعى الحازم .

والشنفرى هو أيضاً ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية الأصيلة ، وابن الفطرة الغنية بالاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس ، فجفاف الصحراء ، ومطاردة الشدائد كرًّا وفرًّا ، والتنكر للمذلة ، وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وإن جار ، والاكتفاء بالقليل مادة وسكناً . والصبر على الجوع ، وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاراة الأيام ، والقبول بالفقر والغنى ، والارتياح إلى القوس ... هذا هو الشنفرى ، وهذا موضوع فخره ، وتلك طريقته الاعترافية الحافلة بالعذوبة . وها هو ذا ، وقد دخل الغيظ نفسه ، فغادر الأهل والأصحاب ، وراح يضرب فى الفيافى ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدة كانت حكاية لحاله فى عزة نفسه وسخطها ووحشتها . نجتزئ منها بما يلى :

أَقيموا بنى أُمِّى صدورَ مَطِيِّكُمْ فإنى إلى قومٍ سواكم لأَمْيَلُ
فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقمِرٌ وشُدَّتْ لِطَيَّاتٍ مطايا وأَرحُلُ
وفى الأَرضِ مَنْأًى للكريمِ عن الأَذى وفيها ، لمن خاف القِلى ، مُتَعَزَّلُ

لعَمْرُكَ ما فى الأَرضِ ضِيقٌ عَلى امرئٍ ... سَرَى راغِباً أَوراهِباً وهْوَ يَعْقِلُ
وَلِى دونَكم أَهْلون سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وأَرقَطُ زُهْلولٌ وعرْفاءُ جَيأَلُ
هُمُ الأَهْلُ لامُسْتَوْدَعُ السرِّ ذائعٌ ... لديْهِم ، ولا الجانى بما جَرَّ يُخْذَلُ
وكلٌّ أَبَىٌّ باسلٌ ، غَيرَ أَننى ، ... إذا عُرِضَتْ أُولى الطرائدِ أَبْسَلُ
وإن مُدَّتْ الأَيْدِى إلى الزَّادِ لم أَكُن ... بأَعْجلِهِمْ ، إذ أَجْشَعُ القومِ أَعْجَلُ
وما ذاك إلا بَسْطَةٌ عن تَفَضُّلٍ ... عليهم وكان الأَفضلُ المتفَضِّلُ
وإنى كفانى فَقْدُ مَنْ ليسَ جازِياً ... بحُسْنَى ولا فى قُرْبِه مُتعلَّلُ
ثلاثةُ أَصْحابٍ : فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ ... وأَبيَضُ إصْلِيتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ
هَتُوفٌ من المُلْسِ الْمُتُونِ يزينُها ... رصائعُ قد نيطَتْ إليها ومَحْمَلُ
إذا زَلَّ عنها السَّهمُ حَنَّتْ كأَنها ... مُرَزَّأَةٌ تَكْلَى تُرِنُّ وتُعْوِلُ

وعروة بن الورد هو رجل العطاء والجود يفخر بهما فى غير تبجح ، وهو رجل الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحدب على ذوى البؤس ، ومن أروع ما قال فى هذا الصدد :

دعِينى أَطوِّف فى البلادِ لعلَّنى ... أُفيدُ غِنًى فيهِ لذِى الحقِّ مَحْمِلُ
أَليس عظيماً أَن تُلِمَّ مُذِمَّةٌ ... وليس علينا فى الحقوقِ مُعَوَّلُ
فإن نحنُ لم نملِكْ دفاعاً بحادثٍ ... تُلِمُّ به الأَيامُ فالموْتُ أَجملُ

ومن ثم ترى أن هذا الصعلوك من أشرف الصعاليك ، فهو يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويبذل كل شىء فى سبيل الغير . وفخره اعتراف بما يعمل وبما يرى ، واندفاق طبيعى للنفس الجاهلية ، فى أقرب حالاتها إلى الفطرة .

ب — فخر الشعراء الفرسان :

وهنالك فئة أخرى من الشعراء هى فئة الشعراء الفرسان ، وأحسن شعرهم فى الحماسة والفخر ، وخير ممثلين لهم : حاتم طيئ وعنترة بن شداد .

أما حاتم الطائى فهو سيد من سادات قبيلته ، وهو مضرب المثل فى الجود وكرم الأخلاق والعاطفة الإنسانية التى تمتد إلى كل ضعيف وغريب ، ومعوز وأسير . قال ابن الأعرابى : « كان حاتم من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق . وكان يقسم بالله ألا يقتل واحدٌ أمه . وكان إذا أهل الشهر الأصم ، الذى كانت مضر تعظمه فى الجاهلية ، ينحر كل يوم عشرة من الإبل ، فأطعم الناس واجتمعوا عليه » .

وهكذا كان حاتم مترفعاً عن الدنايا ، وهو يقول :

كَرِيمٌ لا أَبيتُ الليلَ جَادٍ ... أُعَدِّدُ بالأَنامِلِ مَا رُزِيتُ[1]

إذا مَا بِتُّ أَشرَبُ فوقَ رِيٍّ ... لِسُكْرٍ فِى الشرابِ ، فلا رَوِيتُ

إذا مَا بِتُّ أَخْتِلُ عِرْسَ جارِى ... لِيُخْفِيَنِى الظَّلامُ فَلا خَفِيتُ[2]

أَأَفْضَحُ جارَتى وأَخونُ جارى ؟ ... معاذَ اللهِ أَفعَلُ ما حييتُ !

فهو عفيف وهو أبى النفس ، وهو لا يخون الجار مهما تقلبت الأحوال . وهو رائع فى فخره هذا ، مرتق إلى درجات عالية من سمو الأخلاق .

---

(١) الجادى : السائل . رزيت أى رزئت : أصبت به .

(٢) اختل : أخادع . العرس : الزوجة .

وحاتم لا يعبد الدينار ، بل يرى أن الحياة بذل وسخاء ، وأن المال خلق للبذل فى سبيل الثناء والذكر الحميد ؛ فعلى الإنسان ألا يكسبه بالغدر ، وعليه ألا يتمسك به تمسكاً شديداً ، وهو يقول :

إذَا كانَ بعضُ المالِ ربًّا لأَهْلِهِ فإنِّى بحمد الله ، مَا لى مُعَبَّدُ
يُفَكُّ به العَانى ، ويُؤْكَلُ طيِّباً ويُعْطَى ، إذا مَنَّ البَخِيلُ المطرَّد

وللمال فى مذهبه سبل ؛ وللبذل فى نظره مبرر ؛ فالعيش قصير ، والحياة فانية ، وخير ما يترك الإنسان على الأرض ذكر طيب ، وثناء يردده القاصى والدانى .

وحاتم يوقد النيران للضيفانِ ليلاً ، ويبذل فى سبيلهم كل نفيس . وكان إذا جنّ الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار فى يفاع من الأرض لينظر إليها من أضله الطريق فيأوى إلى منزله ؛ وكانت كلابه لا تهر فى وجه ضيوفه :

وإنَّا نُهينُ المالَ فى غيرِ ظِنَّةٍ وما يَشْتكينَا فى السِّنينَ ضريرُها (١)
إذا ما بَخِيلُ النَّاسِ هَرَّتْ كلاَبُهُ وشَقَّ على الضيْفِ الضَّعيفِ عَقُورُهَا (٢)
فإنِّى جَبَانُ الكلْبِ بَيْتِى مُوَطَّأٌ أَجودُ ، إذا ما النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُها
وإنَّ كلابى قَدْ أُهِرَّتْ وعُوِّدَتْ قَلِيلٌ ، على مَنْ يَعْتَرِينى ، هَرِيرُهَا

وهكذا كان حاتم عبداً لضيفه ، وكان اشتراكى النزعة ، وهكذا كان فخره حكاية حال . وتصويراً للحقيقة والآمال ، وهكذا كان رجلاً فوق الرجال ، وعلماً من أعلام المروءة العربية الأخاذة .

وأما عنترة بن شداد العبسى ففيه « معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق

---

(١) السنون : أى سنو القحط .
(٢) العقور : الذى يعقر .

دون أن تنتهى به الرقة إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهى به الشدة إلى العنف ، وهو صاحب شراب دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب صحو دون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغى للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدام إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم . وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به العربى الكريم » فيقول :

أَثْنِى علىَّ بما عَلِمْتِ فإننِى ... سَهْلٌ مُخَالَقَتِى إذا لم أُظْلَمِ (١)
ولَقَدْ شرِبْتُ من المُدَامَةِ بَعْدَ ما ... ركَدَ الهواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ (٢)
فإذا شَرِبْتُ فإنَّنى مُسْتَهْلِكٌ ... مَالى ، وعِرْضِى وافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فَما أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى ... وكَمَا عَلِمْتِ شَمائلِى وتكرُّمى

وعنترة يغشى الوغى ويعف عن المغنم ، وهو رجل حياء وتكرم وعفة ؛ وفخره صورة صادقة لنفسه الشريفة التى تأبى القيود ، وتسمو إلى العلاء ، ولا تقبل الذل والصغار ، والتى تؤثر الجوع على المأكل الخسيس ، ولا تخون الجار فى ماله أو فى عرضه .

حـ — فخر الأمراء وشعراء البلاط :

وقد تعالت نغمة الفخر فى الجاهلية عند الأمراء أيضاً وشعراء البلاط ، إلا أن تلك النغمة لم تكن مجرد اعتراف وحكاية حال ، بل تضخمت أوتارها بعض التضخم ، فتضخمت من ثم المعانى والأخيلة ، ولكن من غير إحالة ولا غلو مكروه . ومن هذه الفئة السموءل وطرفة بن العبد .

---

(١) مخالقتى : معاشرتى .

(٢) المشوف : المجلو ، استعارها للدينار . المعلم : الذى يجعل كتابة .

أما السموءل فهو ابن غريض بن عادياء اليهودى صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيماء ، وبه يضرب المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ولم يخن أمانته فى دروع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار إلى القسطنطينية يطلب معونة القيصر . والسموءل عالى النفس عزيزها ، ينظر إلى كل شيء من علُ ، لا عن كبرياء عمياء ، ولا عن غرور صبيانى ، بل عن أنفة مكونة من عرض مصون ، وكرم أصل ، وتسام فى صفوف شبان قومه وكهولهم ، وعزة جار ، ومنعة وشجاعة ، وسخاء يد ، وتاريخ مجد لا يعدله مجد . وشعر السموءل صورة لتلك النفس الرفيعة بما فيه من متانة فى الأسلوب والتركيب ، وما فيه من رصانة وجلال . قال مفتخراً:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللؤْمِ عِرْضُهُ ... فكلُّ رداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيسَ إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبِيلُ

تُعَيِّرُنا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا ... فَقُلْتُ لها إنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ

وما قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنا ... شَبابٌ تَسامى لِلعلَا وَكهولُ

ومَا ضَرّنا أَنَّا قَلِيلٌ وجَارُنا ... عَزِيزٌ وجارُ الأَكْثَرِينَ ذليل

لنَا جَبَلٌ يَحتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ ... مَنِيعٌ يَرُدُّ الطرْفَ وَهْوَ كَلِيلُ

رَسَا أَصْلُهُ تَحتَ الثَّرَى وسَما بِهِ ... إلى النَّجم فَرْعٌ لاَ يُنالُ طَوِيلُ

وَإِنا لقَوْمٌ مَا نَرى القَتْلَ سُبَّةً ... إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

يقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجالَنا لَنا ... وَتكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتطُولُ

وَما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلا طُلَّ مِنَّا حَيثُ كانَ قَتِيلُ

تَسِيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسُنا ... وَلَيست على غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ

صَفَوْنا فَلَمْ نَكْدَرْ وأَخْلَصَ سِرُّنا ... إناثٌ أَطابَتْ حَمْلَنَا وفُحُولُ

عَلَونا إلى خَيْرِ الظُّهُورِ وحَطَّنا ... لِوقتٍ إلى خَيْرِ البُطُونِ نُزُولُ
فَنحْنُ كَماءِ الْمُزْنِ مَا فِى نِصابِنا ... كَهامٌ وَلا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ
ونُنكِرُ إنْ شِئْنَا عَلى النَّاسِ قَولَهمْ ... ولاَ يُنكِرُون الْقَوْلَ حينَ نقول
إذا سَيِّد مِنَّا خَلاَ قامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ
وَما أخمِدَتْ نَارٌ لَنا دُونَ طَارِقٍ ... ولا ذَمَّنا فى النَّازِلينَ نَزِيلُ
وأَيَّامُنا مَشْهُورةٌ فى عَدُوِّنا ... لَها غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وحُجُولُ
وأَسيَافُنا فى كلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقٍ ... بِها مِنْ قِراعِ الدَّارِعينَ فُلُولُ
مُعوَّدَةٌ أَلا تُسَلَّ نِصالُها ... فَتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ
سَلِي إنْ جَهِلْتِ النَاسَ عنَّا وعَنْهُمُ ... فَلَيس سَواءً عَالِمٌ وَجَهُولُ
فإنَّ بَنَى الدَّيَّانِ قُطبٌ لِقَومِهِمْ ... تَدُورُ رَحاهُمْ حَوْلهمْ وتَجُولُ

هذه القصيدة خلاصة الخلق العربى النبيل ، وخلاصة المروءة وعزة النفس ، وهى تنقل القارئ إلى جو واسع من الرفعة ؛ وهى تنبض بالحياة وتمثل روح صاحبها أقوى تمثيل ، وكأنى به شاخصاً فى كل لفظة وكل نبرة وكل بيت ، وكأنى به فى ذروة المجد العربى يردد القول :

تُعيِّرُنا أَنَّا قليلٌ عديدنا ... فقُلْت لها إنَّ الكرامَ قليلُ

وأما طرفة بن العبد فليس من شعراء الفخر الذين أكثروا من القول فيه ، ولكنه شاعر عاش فى جو من التحرر الفكرى والأخلاق ، فاصطدم بالواقع الأليم ، وطرد من حيه فراح يضرب فى البلاد إلى أن اتصل ببلاط الحيرة ، واصطدم هنالك أيضاً بضعة الناس ولم يحسن المراوغة ، وقد كان للاصطدام فى نفسه انفعالات

شديدة ، وهو الشديد الشعور ، والكثير الانكفاء على الذات وعلى أحداث الحياة يحللها ويحاول تفهم مصايرها ومصادرها . وقد كان لنفسه غضبات وانتفاضات ضمنها من أقوال الفخر ما يصدى لحالاته النفسية أصدق إصداء. وهو فى فخره رجل عنفوان يقعد على الواقع انطلاقات خياله ، وهو رجل صراحة وجرأة ، يصف لنا حاله فى غير التواء ، وإذا هو قوى على حوادث الدهر ، صبور فى الملمات ، وإذا هو من قوم مجدهم فى اتزانهم ، ورفعتهم فى اتضاعهم وبسطة أكفهم ، لا تبدلهم الأحداث ، ولا تغيرهم الأحزان والمسرات ، يعطون فى غير حساب ، ويقرون الضيفان فى غير اقتصاد ، لهم فى نحور الأشرار طعنات وطعنات ، ولهم فى نحور الأخيار قلائد وقلائد ، لا تعز الحمرة فى جنباتهم ، ولكن لهم مع الحمرة عقولاً راجحة ، وفضائل غراء :

وَتَشَكَّى النفسُ ما صابَ بِها ... فَٱصْبِرى إنَّكِ مِنْ قَوْمٍ صُبُرْ[١]

إنْ نُصَادِفْ مُنْفِساً لاَ تُلْفِنا ... فُرُحَ الخَيْرِ ، وَلا نَكْبُو لِضُرْ[٢]

أُسْدُ غابٍ ، فإذا مَا فَزِعُوا ... غَيْرُ أَنْكاسٍ ولا هُوج ، هُذُرْ[٣]

وَلِيَ الأَصْلُ الذى فى مِثْلِه ... يُصْلِحُ الابِرُ زَرْعَ المُؤْتَبِرْ[٤]

طيّبو الباءَةِ ، سهْلٌ ، ولَهُمْ ... سُبُلٌ إنْ شِئْتَ فى وحْشٍ وعِرْ[٥]

وهُمُ ، ما هِمْ ، إذَا ما لبِسُوا ... نَسْجَ داوُدَ لِبَأْسٍ مُحْتَضِرْ[٦]

---

(١) صاب بها : الباء زائدة ، أى أصابها .

(٢) المنفس : النفيس . نكبو : نحزن .

(٣) الأنكاس : الجبناء .

(٤) الآبر : المصلح . المؤتبر : طالب الإصلاح .

(٥) الباءة : المساحة . يقول : إن ساحاتهم سهلة لطالبى معروفهم ، وهى وعرة لطالبى ضرهم .

(٦) نسج داود : أى الدروع . المحتضر : الحاضر .

وتَسَاقى القــومُ كأْساً مُرَّةً ... وعَلا الخَيْلَ دماءٌ كالشَّقِرْ (١)

ثُمَّ زادوا أنهم فِى قومهمْ ... غُفُرٌ ذنْبَهُمُ ، غَيْرُ فُخُرْ

لا تَعِزُّ الخمرُ ، إن طافوا بها ... بسِباءِ الشَّوْلِ ، والكُومِ البُكُرْ (٢)

ورثُوا السُّؤْدُد عن آبائهم ... ثم سادوا سؤدداً غيرَ زَمِرْ (٣)

نَحْنُ فى المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلى ... لا تَرَى الآدِبَ فينَا يَنْتَقِرْ (٤)

حين قال الناسُ فى مجلسهم ... أَقُتَارٌ ذاكَ أَم ريحُ قُطُرْ ؟ (٥)

ولقد تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنَا ... آفَةُ الجُزْرِ مساميحٌ يُسُرْ

ولقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أَنَّنا ... واضحو الأَوجُه ، فى الأَزْمةِ ، غُرْ

ولقد تَعْــلَمُ بَكْرٌ أَنَّنا ... فاضلو الرأْى وفى الرَّوْع وقُرْ

ولقد تعْلَمُ بكرٌ أَنَّنـــا ... صادقو البأْسِ ، وفى المحفل غُرْ

ويمضى الشاعر الشاب فى تعداد المفاخر متئداً ، هادئ السرب ، واثقاً أن ما يقوله هو الحق ؛ لا يبغى التهويل ولا يتطلب التمويه ؛ هو رجل عقيدة خاصة ، وهو رجل مروءة ، وهو رجل حزم وصرامة ؛ وهو فى كلامه الصارم يصوغ المعانى فى قالب من البداوة الأصيلة ، تلك البداوة الواعية التى ترى وتدرك وتقيس كل شىء بمقياس الأخلاق البدوية الرفيعة ، من غير ما إغراق فى الغلو المبتذل .

* * *

---

(١) الكأس المرة : الحديث فى الحرب . الشقر : شقائق النعمان .

(٢) طافوا بها : ساروا بها . سباء : شواء . الشول : النوق التى مر عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر . الكوم : النوق العظيمة السنام . البكر : الحديثات السن .

(٣) الزمر : القليل .

(٤) المشتاة : الشتاء . ندعو الجفلى : أى نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً .

(٥) القتار : رائحة اللحم المشوى . القطر : العود الذى يتبخر به .

تلك نماذج من الفخر الذاتى فى الجاهلية ، يتضح لنا من خلالها أن موضوعها الأخلاق العربية التى كان العربى يعتز بها ، وهى مستوحاة من حياة الفطرة وحياة البادية . ويتضح لنا أنها تنبت على لسان الشاعر الجاهلى نبتاً تلقائياً فى سذاجة عذبة ، وفى إيمان ثابت بالكرامة العربية ، والعزة البدوية .

الفخر الذاتى فى العهد العباسى

لم يقتصر الفخر الذاتى على الجاهلية وإنما تعداها إلى سائر عصور الأدب ، ورافق الشعر فى جميع تطوراته ، وقد انتشر فى العهد الإسلامى والأموى ولكنه امتزج بفكرة الفتوح ، وبالحماسة الهجائية والحربية ؛ ولهذا آثرنا أن نجعله فى باب خاص ؛ ثم كان العهد العباسى ، وكان الانقلاب العظيم فى السياسة والاجتماع والثقافة ، وجرى التمازج الضخم بين العرب والشعوب الأعجمية ، وبين العقل العربى والعقل اليونانى والفارسى والهندى ، وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق القديم ؛ ونشأت النزعة العنصرية فى صفوف الشعوبية ، وكان للفخر على كل حال أبواب وأبواب . أما موضوعات الفخر الذاتى فى العهد العباسى فهى مما يماشى حاجات أبناء ذلك العهد وصور معيشتهم . وقد كانوا فى بدء الأمر فى طور انتقال من حال إلى حال ، من عروبة أصيلة إلى عروبة ممتزجة ، من تشديد إلى تحرر ، من ثقافة وحضارة عربيتين إلى ثقافة وحضارة هما مجموعة ثقافات وحضارات ، من عادات وتقاليد عربية فى الأخلاق والدين والأدب ، إلى عادات وتقاليد هى عصارة عادات وتقاليد ومجموعة نزعات تصطبغ كلها بصبغة الانفلات من القيود ، والتفلسف والجدل ، والاعتماد على العقل الذى فاجأته الفلسفات فحار بينها وحاول أن يهدم ويبنى فى غير تثبت عميق أحياناً كثيرة . ثم راح أبناء ذلك العهد يهضمون الفلسفة والعلوم ، وراحوا يبحثون ويناظرون ، وراحوا يكتبون فى ما يبحثون ، وإذا الجو جو عامى ثقافى تجديدى ، وإذا هنالك صراع بين القديم والجديد ، وبين التقاليد والتقاليد ، وإذا هنالك تفاخر على غير خطة الجاهلية والعهد الأموى ، وإذا الفخر يدور حول العقل والرأى والحكمة ، وحول الانفلات والتحرر ، والشجاعة الحكيمة ، والحزم فى

الأمور ، والأصل العريق فى الحضارة والرقى . والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة بالفن ، والأصباغ المتماوجة فى أجواء الجمال . وحول الوقار والتعالى فى سلم المجد المعنوى ؛ وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة فى الأدب العباسى . ولئن عثرنا بعض الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم ؛ فما ذلك إلا نفحات صحراوية فى بلاد اليمن والرخاء . وما ذلك إلا أصوات ناشزة فى عالم من الأنغام المتناسقة .

وإننا سنعرض لبعض شعراء الفخر فى هذا العهد مبينين ما لهم من صفات وميزات ؛ موضحين آراءهم وأساليبهم ، وإن فى شعرهم الدلالة الثابتة على ما فى شعر غيرهم من ميزات وآراء وأساليب .

١ — فخر المجددين :

حياة جديدة واسعة الآفاق ، وعناصر أجنبية تضمر للعرب شراً ، وشعوبية غاضبة على السلطان القائم . وتدخل الفرس فى صلب الدولة ، كل ذلك دعا إلى التجديد فى مطلع العهد العباسى . بل دعا إلى صراع بين أرباب القديم وأرباب الجديد . وخير ممثل لهذه النزعة التجديدية فى الفخر بشار بن برد .

كان بشار من أصل غير عربى ، وكان فياض القريحة الشعرية ، ففخر على عادة الشعراء ؛ وكان الميدان أمامه واسعاً ، وإذا به يصف نفسه بكل الصفات المحببة إلى ابن العهد العباسى ، فى كلام متين ، وتدفق عجيب ، وسلاسة ما بعدها سلاسة ، وموسيقى شعرية أخاذة ؛ وإذا به رجل الشهرة الواسعة التى لا تضاهيها شهرة :

أَنَا المرَعَّثُ لا أَخْفَى على أَحدٍ ذَرَّتْ بِىَ الشمسُ للدَّانى وللنَّائِى

وإذا به نموذج ومثال أعلى يشبه به الخليفة نفسه :

يغدو الخليفةُ مِثْلِى فى محاسنهِ ولسْتَ مِثْلِى فَنَمْ ياماضِغ ٱلْماءِ[1]

فهو أخو المحاسن ، وهو الرجل العالى فى مراتب الاجتماع ، وهو رجل الخطة العظيمة ، الذى ينهض بكل أمر ذى شأن .

وهو رجل المضاء والبيان :

قَطَعْتُ مِرَاءَ القومِ يَوْمَ مَهَايِلٍ بقَوْلى وما بَعْدَ البَيَـانِ مِرَاءُ
وقد علمتْ عليـا ربيعةَ أنَّنى إذا السَّيْفُ أَكْدى كان فىَّ مَضَاءُ

وهو القلب النير والمقول الذرب :

قَدْ أَذْعَرُ الجِنَّ فى مَسَارِحِها قَلْبى مُضِىءٌ ومِقْوَلى ذَرِبُ

هو رجل العقل والحصافة ، هو رجل الثقافة الواسعة فى عالم الثقافة والعلم ، وهو رجل القريحة الفياضة فى عصر الإنتاج والنقل والترجمة ، وهو إلى ذلك رجل الوقار القائم على العقل المفكر :

يا سَلْمَ إنَّى امرؤٌ يوقِّرنى حِلْمى إذا القَوْمُ فى الخنا وَثَبُوا

أما قومه فخير القوم ، فى شجاعتهم ، وعزّهم وشرفهم ، ورجاحة عقلهم :

أَصُونُ عن اللِّئامِ لُبابَ ودِّى وأختصُّ الأَكارِمَ باللبابِ
وأَىُّ فتًى من البَوْغاءِ يُغْنى مُقَامى فى المخاطِبِ والخِطَابِ[2]

---

(١) يخاطب يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ويهجوه وينعته بالحمق وسوء وضع الأشياء موضعها .

(٢) البوغاء : الحمق .

وتَجْمَعُ دَعْوَتى آثار قَوْمى هُمُ الأُسدُ الخوادِرُ تَحْتَ غابِ
وُلاةُ العِزِّ والشَّرَفِ المَعَلَّى يردُّونَ الفُضولَ على المُصَابِ

هؤلاء هم قومه ، وهذا هو فى قومه . وهذا هو العقل عنده وعند قومه ، وهذه هى النزعة الإنسانية التى تحنو على الوجود ، وتقابل النكران بالجود ، وتنبت من الشر خيراً ، ومن الغضب براً ؛ وتسرع إلى الرحمة من غير ما سرعة إلى العتاب والعقاب ، وترد الضال عن غيه ، وتلم الشعث ، ولا تطلب من عمل خير تعمله إلا أن ينتفع الناس ويعرفوا الجميل ؛ وإذا دعت الحال إلى الحرب ، كانت تلك النزعة صدوراً متأهبة للقتال فى بأس شديد ، وسخاء فى التفانى عجيب.

مشهد جديد من مشاهد الفخر دعت إليه الحضارة الجديدة والمجتمع الجديد ، وكم فى هذا الفخر من تعقل ورصانة وجودة تفكير !

وأما أصل بشار فهو بعيد عن كل أصل عربى ، وهو بعيد عن عادات العرب . وهنا تظهر النزعة الشعوبية عند بشار بأجلى مظاهرها . فاسمعه يقول :

هَلْ مِنْ رسُولٍ مُخْبِرٍ عنِّى جميعَ العربِ
بأَنَّنى ذو حَسَب عالٍ على ذى الحسب
جَدِّى الذى أَسْمو به كسرى وساسان أَبى

إن فى هذه القصيدة استعلاء شديداً على العرب ومفاخرة بالفرس والروم . وهذا شىء جديد فى تاريخ الفخر العربى . وإننا إذا أنعمنا النظر فى القصيدة تجلت لنا الحضارة الفارسية فى أبهتها ورونقها ، وذكرنا الحروب الفارسية وانتصارات الأكاسرة ، ووقفنا أمام الشاعر متتبعين لأحداث التاريخ ، ذاكرين أثر الفرس فى الانقلاب العباسى ، وكيف كان ذلك شرارة ألهبت النار الشعوبية

فى طول البلاد وعرضها ؛ مما شجع الألسنة على تنقص العرب والحط من شأنهم والتطاول على كرامتهم .

وبشار رجل طوّحت به الأقدار وزجته فى ظلمة كالحة ، لا يجد معها سلاحاً يقاوم به الحدثان إلا لساناً محدداً ، وشاعرية فياضة تلبى حين الطلب . وهو رجل عنفوان وطموح ، تحمله طبيعته على التسامى وعلى سد نقص الطبيعة بذلك التسامى نفسه ، وهو من ثم ميال إلى المفاخرة ، حاقد على الحظ ، كاره للناس ولا سيما العرب منهم ، الذين يجد من بعضهم استصغاراً لشأنه . وهذا الشعور بالنقص عند بشار ، وهذا الحقد ، وهذا التسامى ، كل ذلك يدفعه إلى السخرية الصفراء ، إلى الاستهزاء الناقم . ولهذا حفل فخره بالاستهزاء اللاذع والسخرية القتالة .

وبشار إلى ذلك رجل حماسة فياضة ، ينتفض شعره بعاطفته انتفاضاً ، وتحمل ألفاظه أصداء عميقة لتلك العاطفة المنتفضة ، وهو القائل :

إذَا الملكُ الجبّارُ صعَّرَ خَدَّهُ مشينَا إليهِ بالسيوفِ نُعاتِبُهْ

وهكذا كان بشار نفير العهد الجديد ، وهكذا كان فخره جديداً بمعناه وأسلوبه وشعوبيته ، وإن لم يخل من بعض النفحات القديمة التى انتقلت إليه عن طريق التقليد .

ب — فخر العودة إلى القديم :

بعد هذه الثورة التجديدية التى حاول أن يبعثها المجددون ، نشأ تيار معاكس يعمل على العودة إلى القديم وتقليد الأقدمين ، ويرد الشعر إلى أبواب البلاطات ، وإلى أرستقراطية القديم وصلابته ، من غير ما تغاض عن حضارة العصر الجديد ، ومن غير إهمال لما تقدمه الثقافة الجديدة من عمق تفكير ، وتنميق وتحبير ، ومن تفخيم وتطلب للصنعة البديعية . وقد اشتهر فى هذه المرحلة أبو تمام والبحترى وابن الرومى .

أما أبو تمام فهو صاحب قصائد قليله فى الفخر ، يبدى فيها إعجابه بعقله الباكر الفذ ، وعبقريته الشعرية ، وبصبره ومضائه فى اقتحام الصعاب ، وسعيه وأسفاره ، كما يعرب فيها عن إعجابه بقبيلته طيئ ، وما تمتاز به دون سواها من حجى وحلم وشجاعة ، ومن مجد أثيل ، وندى فياض .

وأما البحترى فقد أودع فخره إعجابه بقومه ، مباهياً بمكارمهم ، معدداً مناقبهم ، مقابلاً شرف اليمن وعزّها بخشونة عرب الشمال وسوء حالهم ؛ كما أودعه إعجابه بنفسه ، وكبره المفرط ، ذلك الكبر الذى طالما حال التكسب دونه فى حياة الشاعر ، فاضطره إلى كسر عنفوانه وعناده ، وهضم الإهانة فى حذر ، خشية صد العطاء .

وأما ابن الرومى فكان الفخر عنده وسيلة يحارب بها سوء نظر الناس إليه ، وكان انتفاضة عصبية فى وجه الظلم ولؤم الناس . فهو يقرع الممدوحين على الالتفات إلى سائر الشعراء دونه ، وهو وحده فى نظره الجدير بالالتفات ، ويفخر وفخره أحياناً كثيرة بشعره وبلاغته . ومن قوله :

شِعْرِىَ شِعْرٌ إذا تـأَمَّلَهُ الإنـ ـسُ انْ ذو العقلِ والحجى عَبَدَهْ

ومن قوله أيضاً مخاطباً القاسم بن عبيد الله :

إنْ أَكُنْ غيرَ مُحْسِنٍ كلَّ ما تَطْـ ـلبُ إنِّى لَمُحْسِنٌ أَجزاءَ
فمَتى ما أَرَدْتَ طالِبَ فَحْصٍ كُنْتُ مِمَّنْ يشارِكُ الحكماءَ
ومتى ما أَرَدْتَ قارِضَ شِعْرٍ كُنْتُ مِمَّنْ يُسَاجِلُ الشعراءَ
ومتى ما خطَبْتَ منِّى خطيباً جَلَّ خَطْبِى ففاقَ بى الخُطَباءَ
ومتى حاوَلَ الرسائِلَ رَسْلِى بَلَّغْنَنى بلاغَتى البُلغاءَ

حـ – فخر شعراء الإمارات :

ازدهرت الإمبراطورية العباسية ازدهاراً شديداً فى امتداد أطرافها وسعة رقعتها وخصب أرضها وسمائها وعظمة سلطانها ، وقد بلغت أوجها فى عهد المأمون . وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزق هيكل تلك الإمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية ، وحتى أصبحت نهباً لكل ذى طموح وطمع ، وإذا الدولة تصبح دويلات ، أشهرها دولة بنى العباس فى بغداد ، ودولة البويهيين فى فارس ، ودولة الحمدانيين فى الشام . ودولة الفاطميين فى مصر والمغرب . وقد تنافست تلك الدويلات فى تشجيع العلم والأدب ، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتاب . وقد اشتهر من الشعراء فى هذه الحقبة أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى ، والشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى ، والطغرائى .

أبو الطيب المتنبى :

ولد بالكوفة وفخره كثير فى ديوانه ، وهو مبثوث فى جميع قصائده تقريباً ، وإن لم يستقل بواحدة منها . فأبو الطيب يفخر فى جميع أحواله ، سواء رثى أم مدح أم هجا أم تغزّل أم شكا . ولا عجب ، فهو لا يرى له مثيلاً فى الوجود ، يعبد نفسه ويكاد لا يعرف فى الأرض سواها . أحس بعظمة شخصيته ، وقدر صفاته ، من أنفة وعزة وبسالة وشاعرية . حق قدرها بل فوق قدرها ، فامتلأ صدره وفاض حسداً وكرهاً . زد على ذلك اشتهار أصله العربى بالفصاحة والبيان ، وقبيلته اليمنية بالفروسية والشجاعة . وكان له أيضاً من نشأته البدوية ما مكن فيه النزعة المفاخرة . حتى أصبحت فيه طبعاً ، ومن معاكسات الزمان ، ومناهضة الحساد ، ما جعله يعمد إلى الفخر ، تفريجاً وتعزية للنفس .

قلّ فخر المتنبى بقومه ، وإذا فخر بهم أوجز وأجمل ، لقلة ما عرف عن آبائه الأقربين من المآثر والمفاخر ، ولأنه كان يعد نفسه مفخرة قومه :

لا بقَوْمى شَرُفت ، بل شرُفوا بى وبنَفْسى فَخَرْتُ ، لا بجُدودِى !

ولذلك حصر فخره فى نفسه ، مطرياً عزمه وصبره ، وتصلبه ، وخبرته :

كأَنِّى دَحوْتُ الأَرْضَ مِن خِبرَتى بها كأَنى بَنى الإِسْكَنْدَرُ السدَّ مِن عزمى

وهو يحب أن يتمثل بعنترة ، فيصف نفسه فى المعمعة ، يوقع بالعدوّ المذعور بالسيف والرمح . وكم تسمعه يتغنى بشاعريته ، ذاكراً مقدرته فى الشعر وانقياد القوافى له :

أَنَامُ مِلءَ جفو نِى عَن شوارِدِها ويَسْهرُ النَّاس جرَّاها ويَختَصِم

وسيرورة شعره :

وما الدَّهرُ إِلَّا مِنْ رُواةِ قصائِدى إذا قُلت شِعرًا أَصْبحَ الدَّهرُ مُنْشِدا

وبهاء منظوماته وحسن سبكها :

وما قُلتُ مِنْ شِعرٍ تكادُ بيوتُه إذا كُتِبَتْ ، يَبيَضُّ مِنْ نُورِها الحِبرُ

والمتنبى يعد نفسه من مرتبة الأنبياء والملوك ، وكثيراً ما يجعل نفسه فوق الجميع ، ويجمع فيها كل الصفات :

سيَعْلمُ الجمْعُ ممَّنْ ضَمَّ مَجلِسُنا بأَنَّنى خَيرُ مَن تسْعى بهِ قَدمُ
الخَيلُ واللَّيلُ والبَيداءُ تَعرِفُنى والسَّيفُ والرُّمحُ والقِرطاسُ والقلَمُ

وفخر المتنبى صريح ، جرىء فى كبريائه الجموح ، بل مغال فيها إلى حد مفرط ، وكثيراً ما يبطن كبرياءه بازدراء شنيع يشمل الناس والكون جميعاً .

إلا أن فيه من الأنفة والترفع عن الدنايا ، وجمال الصفات الرجولية واندفاع الروح الشعرية النابضة ، ما يغطى شيئاً من تلك المعايب الضخمة ؛

ومن أروع المواقف التى توضح لنا نفسية المتنبى فى فخرها واعتدادها ذلك الموقف الجبار الذى وقفه فى حضرة سيف الدولة وحوله الشعراء والعلماء وقد آلموه ؛ وقد أوغروا عليه صدر أمير حلب ، فقال قصيدة منها :

كم تطلبونَ لنا عيْباً فيُعجزُكم ... ويكرهُ اللهُ ما تأتون والكرمُ
ما أبْعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفى ... أنا الثريا وذانِ الشَّيب والهَرَم

أبو فراس :

أما أبو فراس الحمدانى فقد افتخر كل حياته ، حتى فى أسره ، وأقحم الأبيات الفخرية فى أغلب منظومه ، أيًّا كان نوعه .

كان لأبى فراس من عز قبيلته تغلب ، ومكانة آبائه الذين اشتهروا بالشجاعة والجلد وعلوّ الهمة ، داع يستفزه إلى الفخر ، ولا سيما أنه قد تفتحت عيناه للنور فى قصر تملؤه طائفة من حملة السيوف وأرباب الأدب .

ولما شب رأى فى نفسه أنفة وفتوة ناضرة ، وشجاعة ترغب فى قراع الأسنة واقتحام المخاطر ، وشمائل أثارت فى نفسه الإعجاب . ولما خاض ميدان القتال ، وأحرز من الانتصار على مناهضى ابن عمه سيف الدولة ما هز أعطافه طرباً ؛ هب يترنم بوقائعه ، وتمرسه بالشدة والتصلب فى مجابهة الأخطار .

ثم لم يلبث أن أسر ، فتبدلت حاله ، ولكنه أبى المذلة ، فشرع يتعزى ويتنشط بذكر مآثره وخصاله .

ولعل تيتمه فى حداثة سنه ، الذى حرمه عطف والده وحفاوة المتزلفين ، دعاه إلى الفخر ، استعاضة عن مديح الشعراء .

ولأبى فراس فى قبيلته وذويه مفاخر كثيرة ، منها قصيدة طويلة مطلعها :

لعلَّ خيالَ العامِريَّةِ زائرُ فيَسعَدَ مَهْجورٌ ، ويَسعد هاجر

وهو يرى في قبيلته الخير كله . فإن ماضيها وما لها من الأيام المأثورة ، قبل الإسلام وبعده ، يشهدان بمفاخرها . وناهيك بآل حمدان دليلاً . هم أولو المناقب الرفيعة ، والمآثر الجليلة ، وهم أصحاب الكرم والمجد والشجاعة :

لَئِنْ خُلِقَ الأَنام لحَسوِ كأْسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعُودِ
فلمْ يُخلَقْ بَنوحَمدانَ إلَّا لمَجْدٍ أَوْ لِبَأْسٍ أَو لِجُودِ

وفي آل حمدان السياسة المحنكة . وقد بذلوها في سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج ، وتذليلاً للثائرين ، وقهراً للروم ، وإخضاعاً للقبائل المتشتتة . قال في قصيدة يفخر بها على نزار :

تُفضِّلنا الأَنام ولا تُحاشي ونوصَفُ بالجميلِ ولا نحابى
وقدْ علمتْ ربيعَةُ بَل نِزارٌ بأَنَّا الرَّأْسُ والنَّاسُ الذُّنابى

ولا يقف أبو فراس عند ذكر أسلافه الأبعدين ، بل ينتقل إلى تعداد مناقب جدّه . ووالده ، وابن عمه سيف الدولة ، فتبدو له مفخرةً باقيةً أبد الدهر ، يصونها الأحفاد بعد الأجداد ، ويكملون تشييد ما بنى قبلهم من صروح العز الرفيعة :

نَشيدُ كما شادُوا ، ونَبنى كمابَنَوْا لنا شرَفٌ ماضٍ وآخر غابِرُ

وهكذا يصل الشاعر إلى نفسه . فيفتخر باشتداد عزيمته ، وإقدامه ، وتصلب قوته في وقائع الحروب ، وأنفته ، وانبساط كفه ، وترفعه عن الدنية .

ومهما يكن من اشتداد النوائب وإيقاعها به ، فلا تزال نفسه تأبى مواطن الذل وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة . ولكنها لا ترى ضيراً فى التشكى والعتاب ، وتذكير الواجب ، وما سوى ذلك مما وسعته الروميات . ذلك لأنه ظل فى حياته شريفاً عزيزاً :

وكيفَ يَنتَصِفُ الأَعداءُ من رجُلٍ العِزُّ أَوَّلُهُ والمَجدُ آخرُهُ

يتوكأ أبو فراس فى فخره على مفاخر تتداعى العرب من مثل عمرو بن كلثوم والمهلهل ، فيكثر من ذكر أسماء الرجال ومواقع القتال ، ويجعل فخره قومياً أكثر منه ذاتياً . إلا أنه لا يجيد وصف القتال ، ولا يطيل فيه كما كان يفعل المتنبى فكانت قصائده فى هذا الباب تعداد مفاخر تزخر بعواطف الزهو والمجد ، وينفخ فيها نفس عال فيه من الكبرياء والعزة القومية الشىء الكثير . ولا يخلو فخر أبى فراس من الغلو ولكنه غير مفرط ، ولا يخلو من اللطف الذى يسمو به عن الفخر الصبيانى . وأبو فراس صادق العاطفة . مندفع الحماسة وإن كان ضعيف الوصف ، غير دقيق التصوير .

زد على ذلك أن لفخر أبى فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه سجل لأعمال الرجل ومآثر قومه وأجداده .

الشريف الرضى :

أما الشريف الرضى فهو من أشهر شعراء الفخر عند العرب ومن شعره فى الفخر قوله :

لِغَيْرِ ٱلْعُلَى مِنِّى ٱلْقِلَى وَٱلتَّجَنُّبُ وَلَوْلَا ٱلْعُلَى مَا كُنْتُ فِى ٱلْحُبِّ أَرْغَبُ
إِذَا ٱللهُ لَمْ يَعْذِرْكَ فِيمَا تَرُومُهُ فَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ عَاذِلٌ وَمُؤَنِّبُ
مَلَكْتُ بِحِلْمِى فُرْصَةً مَا ٱسْتَرَقَّهَا مِنَ ٱلدَّهْرِ مَفْتُولُ ٱلذِّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ

فَإِنْ تَكُ سِنِّى مَا تَطَاوَل باعُهَا ... فَلِى مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَجْدِ قلْبٌ مُذَرَّبُ
فَحَسْبِيَ أَنِّى فِى ٱلأَعَادِى مُبَغَّضٌ ... وأَنِّى إلى غُرِّ ٱلْمَعالى مُحَبَّب
وَلِلحِلْمِ أَوْقَاتٌ ، وَلِلجَهْلِ مِثْلُهَا ... وَلكِنَّ أَيَّامِى إلى ٱلْحِلْمِ أَقْرَبُ
يَصُولُ عَلَىَّ ٱلْجاهِلُونَ ، وأَعْتَلى ... وَيُعْجِمُ فِىَّ ٱلْقَائِلُونَ ، وَأُعْرِبُ
يَرَوْنَ ٱحْتِمَالِى غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ ... لَوَاعِجَ ضِغْنٍ أَنَّنِى لَسْتُ أَغْضَبُ
وَأُعْرِضُ عَنْ كَأْسِ ٱلنَّدِيمِ كَأَنَّهَا ... وَمِيضُ غَمَامٍ غَائِرِ ٱلْمُزْنِ خُلَّبُ
وَقُورٌ فَلاَ ٱلأَلْحانُ تَأْسِرُ عَزْمَتِى ... وَلاَ تَمْكُرُ ٱلصَّهْبَاءُ بِى حِينَ أَشْرَبُ
وَلاَ أَعْرِفُ ٱلْفَحْشَاء إِلَّا بِوَصْفِهَا ... وَلا أَنْطِقُ ٱلْعَوْرَاءَ وَٱلْقَلْبُ مُغْضَبُ
تَحَلَّمُ عَنْ كَرِّ ٱلْقَوَارِصِ شِيمَتِى ... كَأَنَّ مُعِيدَ ٱلذَّمِّ بِٱلْمَدْحِ مُطْنِبُ
لِسَانِى حَصَاةٌ يَقْرَعُ ٱلْجَهْلَ بِٱلْحِجَى ... إِذَا نَالَ مِنِّى ٱلْعَاضِهُ ٱلْمُتَوَثِّبُ
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَن تَمَسَّ عَزَائِمِى ... فُضَالاَتُ مَا يُعْطِى ٱلزَّمَانُ وَيَسْلُبُ
غَرَائِبُ آدَابٍ حَبَانِى بِحِفْظِهَا ... زَمَانِى وَصَرْفُ ٱلدَّهْرِ نِعْمَ ٱلْمُؤَدِّبُ

ويتجلى لنا الشريف الرضى رجل عزة وإباء وعزم ، ينظر إلى أصله وإذا هو فى دوحة العلياء من أكرم فرع ، وإذا هو مدعو إلى كل كبير عظيم ، وإذا نفسه أهل لذلك العظيم ؛ وينظر إلى حاله وإذا هو غير ما دعى إليه وخلق لأجله ، وإذا فى نفسه حرب جبارة ، وثورة سخط ضخمة فى وجه الزمان الذى يعادى الأحرار ، وفى وجه الناس الذين يقومون فى وجه كل عزيز طموح . ويتجلى لنا الشريف حزيناً فى قرارة نفسه ، متألماً فى أعماق قلبه ، وذلك أنه لا يستطيع القبول بالظلم ، والاستكانة للذل ، فهو ينتفض انتفاضة النسر الجريح ، وينظر إلى خصومه بعين حادة يلتمع فيها الشرر ، وبقلب جرىء لا يخاف سيداً

ولا مسوداً ؛ هكذا يتجلى لنا الشريف من خلال شعره ، فهو نفس كبيرة أبية ، وقلب رقيق شديد الانفعال ، وثاب إلى المعالى ، نباض فى وجه الظلم ، جرىء على رقته ، بطاش على شدة انفعاله ، لا يخلو من زهو وكبرياء ، ولكن تلك الكبرياء هى أقرب إلى الأنفة منها إلى الكبرياء .

وقد أراد الشريف أن يقلد المتنبى فى فخره ، فجاراه فى نفحته الملحمية ، ونبضاته التوثبية ، وترفعه عن كل حقير دنىء ، وإنه وإن لم يبلغه فى قوة انطلاق شعره ، وفى سكه للأبيات سكًّا شديد الوقع ، فقد وجد من شرف أصله ، وسمو نفسه ، ومواهبه العالية ، وسجاياه النادرة ، ومقامه الاجتماعى ، ما لم يتوفر لأبى الطيب . ولهذا فقد اتسع نطاق فخره ، وازدحمت معانيه ، وتنوعت أفكاره ، ولم يلجأ إلى الإحالة ليخفى ضعفاً أو أصلاً حقيراً أو مقاماً اجتماعيًّا غير لائق به . ومن ثم فقد كان فخر الشريف أقرب إلى النفس ، وأدخل فى العقل ، وآنس للأذن .

وقد فخر الشريف بقومه وفخر بنفسه ، أما فخره بقومه فهو فخر العزة والإعجاب واللوعة ، فخر من ينظر إلى الدوحة الكريمة فيتعالى فى سمائها ، ويغرق بين أوراقها فى عشق وولع ، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن قتل من آل البيت فتذوب نفسه أسى وينطلق لسانه شاكياً ، مهدداً ، وإذا شعره شدة ولين ، ومزيج من قسوة ورقة . وأما فخره بنفسه فهو تطلع إلى العلياء ، وتحديق بالمجد والإباء ، وإعجاب بشجاعة القلب ، وفيض الشاعرية ، وانطلاق الآمال .

وإنك لتشعر ، فى كلام الشاعر ، برفعة ترفعك إلى أجوائها ، وبجو ملحمى يحاول الشاعر أن يضخم عناصر القوة فيه بالتشخيص والتمثيل وتشديد اللفظ والقافية ؛ وإنك لتشعر أيضاً أن فى نفس الرجل انصهاراً مؤلماً يرسل بين سطور الفخر آهات الشكوى والعتاب ، كما يرسل زمجرات السخط والتهديد ، وإنك تشعر على كل حال بانسجام رائع ، وعذوبة أخاذة ، وعمق فى التفكير ، وبعد فى اللمح . وتعجبك من الشريف صراحته وجرأته ، كما يعجبك إيجازه وابتعاده

عن التفصيل والإسهاب . ويروقك اختيار الشريف لألفاظه ، وحسن تركيبه لأبياته ، فهى بدوية حضرية ، مركبة تركيباً حسن الوقع ، رائع الإيقاع .

المعرى :

وأبو العلاء المعرى هو فيلسوف الشعراء . له عدة قصائد فى الفخر أشهرها قصيدتان : الأولى همزية ومطلعها :

ورائى أمامٌ والأمامُ وراءُ إذا أنا لم تكبِرْنى الكُبَراءُ

والثانية لامية ومطلعها :

ألا فى سبيلِ المجدِ ما أنا فاعِلُ عفافٌ وإقدامٌ وحَزْمٌ ونائِلُ

والشاعر يفخر بنفسه وبقومه . أما نفسه فيفخر بصفاتها الأدبية من شجاعة وكرم وذكاء . وأما قومه فيفخر بسلطانهم على الشعر ، واستيلائهم على الأرض ، وغناهم عن الناس ، وافتقار الناس إلى معروفهم .

وأبو العلاء يكد ويجهد فى البرهان عن مفاخره ، وكأنه يخشى من علته وقبح مظهره أن يحولا دون تقدير الناس له ، فينظم الشعر النابض بنزعات شخصيته القوية ولا يتحرج من المبالغة فى التمدح . ويتأتى له فى موقفه هذا أبيات حكمية يتجلى فيها فضل الروح على المادة ، وفضل الغنى الداخلى على الثروة المادية ، فيقول مثلاً :

وإن كان فى لُبْسِ الفتى شرفٌ لهُ فما السيفُ إلَّا غِمْدُه والحمائلُ

الطغرائى :

أما الطغرائى فله فى الفخر قصيدة شهيرة عرفت بلامية العجم ومطلعها :

أَصالةُ الرأى صَانَتْنى عنِ الخَطَلِ وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانتنى لدى العَطَل

مَجْدِى أخيرًا ومجدى أولاً شَرَعٌ والشَّمْسُ رأْدَ الضحى كالشمسِ فى الطَّفَل

فيمَ الإقامَةُ بالزَّوْرَاءِ لا سَكَنى فيها ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِي

وهذه القصيدة من أروع ما كتب فى الفخر وعزة النفس . وقد أودعها الشاعر ثورة نفسه أمام الحدثان ، وراح فيها يفصل أمجاده ، ويصور طوايا تلك النفس ، ويتوثب توثباً حافلاً بالقيم المعنوية ، حافلاً بالرصانة المتجبرة ، التى لا تذللها الصعاب ولا تلوى بها الأيام ، فى انطلاق شعرى مملوء بالإبداع .

الفخر الذاتى بعد العهد العباسى

وصل الفخر الذاتى سيره عند العرب ، وقد أخذ يتقلص ظله شيئاً فشيئاً ويتضاءل فى العصور المتأخرة . لانتشار الحضارة الحديثة وازدياد الوعى الشخصى . ولئن سمعت له أصداء من آن إلى آخر فما ذلك إلا ترديد للنغمات السابقة والأساليب السابقة فى غير انطلاق ولا عمق .